المحور التاسع : الحياة الإجتماعية والاقتصادية في بلدان المغرب العربي الحديث

1- الحياة الإجتماعية

بسبب استقرار الوضع السياسي وهجرة الأندلسيين واحتلال الإسبان للمدن المغاربية واستقرار العثمانيين بها، تحسنت الأوضاع الإجتماعية للسكان وارتفع عدد السكان وظهرت مدن جديدة وازدهرت أوضاع الأرياف . ومن نماذج المدن الجزائرية التي ازدهرت بفضل الهجرة الأندلسية البليدة والقليعة وشرشال ودلس والمدية و مليانةوغيرها ، ونفس الحال بولاية طرابلس التي تطورت بها عدة حواضر منها "زلتين ،الخمس ، سرت ومصراتة وكذلك الحال بالنسبة لعدة مدن تونسية.

أما مستوى الأرياف، انتشرت الأمراض والأوبئة منذ القرن السابع عشر، مثلما حدث في الجزائر سنوات1661-1664م، وتونس سنوات 1663-1657م، وطرابلس الغرب سنوات1655-1691م ،فتناقص عدد سكان مدينة تونس مثلا من40000 نسمة عام 1705م إلى 10000نسمة عام 1756م.

1-1: فئات المدن : تشكل نمط إجتماعي بأغلب المدن المغاربية على الشكل التالي :

1-1-1 :الأقلية التركية: تمثلت في الجنود والموظفين ورياس البحر الذين سيطروا على الحكم ،عددهم ضئيل وتركزوا في عواصم الولايات والمدن الرئيسية؛ ففي ولايات طرابلس وصل عددهم إلى عدة آلاف ، وفي مدينة الجزائر وصل عددهم سنة 1821م حوالي 3661 فرد ،وقد استقروا في الحصون والثكنات وبالحاميات المنتشرة بالمدن الرئيسية.

1-1-2 :طائفة الأعلاج : أوروبيون مسيحيون أسروا في معارك بحرية ، أغلبهم اعتنقوا الإسلام ، تباين عددهم من بلد لآخر ، منهم ميزومورطو الإيطالي في الجزائر وإسطى مراد في تونس ، بعضهم حافظعلى تقاليده ، فكانوا يضعون على رؤوسهم شاشية حمراء، يقيمون ليلا في سجون عامة (Bagnes) ، ويسمح لهم نهارا العمل في الحقول أو الإشتغال في ورشات البحرية أو في مشاغل الصناع وفي الدكاكين .

1-1-3 :الكراغلة: شريحة نتجت عن تزاوج الانكشارية بنساء مغاربيات محليات تمركزت ببعض المدن الرئيسية ، حيث الحاميات التركية المنتشرة عبر المدن ، بلغ عددهم في الجزائر مثلا 6000 نسمة نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، التحق بعضهم بالجند وتولي آخرون وظائف مهمة منذ القرن الثامن عشر الميلادي،تقاسموا السلطة مع طبقة الحضر وارتقى بعضهم إلى الحكم ، مثل أحمد القرمانلي وأسرته بطرابلس. و تولى منهم حكم البايلكات وحتى في دار السلطان منهم مصطفى العمر باي وهران والحاج أحمد باي قسنطينة في الجزائر، وانضم بعضهم إلى جماعات الفرسان "المخزن"، كما هو الحال بالمنشية (طرابلس)، وناصربعضهم الحكام الأتراك ، مثلما أيدوا الداي علي خوجة في إخماد تمرد الانكشارية عام 1817م ونتيجة لذلك تخوف الأتراك منهم وأبعدوهم من السلطة في الجزائر.

1-1-4 :الحضر: يطلق عليهم البلديون ، استقروا قديما بالمدن الرئيسية انضم إليهم المهاجرون الأندلسيون والأشراف المنتسبون لآل البيت . اندمج بعضهم في المجتمع المغربي،والأخر ظل محافظا على طابعهالاندلسي مثلما ظهر بدرنةباقليم برقة .

مارسوا التجارةوالقضاء والتعليم، واستصلحوا الأراضي، وتعاملوا مع الحكام ومنهم عائلات ابن الفكون، ابن باديس بقسنطينة بالجزائر ، أنشأوا مدنا جديدة منها القليعة، البليدة وطوروا أخرى مثل تلمسان، وطبعوا لغة سكان المدن بلهجتهم الغرناطية، كما ساعدوا على انتشار اللسان العربي. وقد اشتهرت منهم بعض العائلات النافذة مثل بوناطير والشريف الزهار. بالجزائر، وابن غلبونوالدغيس... بطرابلس.

1-1-5 :اليهود: بعضهم يعود إلى فترات ما قبل الإسلام ثم أسلموا،إضافة إلى يهودالأندلس(الصافرديين)، قدموا من إسبانيا مع مسلمي الأندلس، واستقروا في القرن السادس عشرميلادي، بالمدن الرئيسية ، ناهز عددهم بمدينة طرابلس ألفين نسمة، حافظوا على مكانة متميزة بفعل حرف الصنائع وصناعة الحلي والتجارة، فتحكموا في المبادلات التجارية مع الخارج؛مثل العهد القرمانلي بطرابلس، واعتبروا أغنى الطوائف بالمدينة. وأقاموا بأحياء خاصة بهم. ومع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وفدتعناصر يهودية نشيطة إلى الجزائر وتونس وطرابلس من مدن ايطالية، وصل عددهم بالجزائر ثلاثين ألف نسمة عند الاحتلال اصطدموا مع الجزائريين في عدة مناسبات 1801-1804- 1805م.

1-1-6 : -البرانية: وفدوامن مدن مغاربية داخلية نحو مدن كبرى ، للإقامة والعمل وانتسبوا للمناطق التي قدموا منها ، مثل الجزائر التي ظهر بها بنو ميزاب، والجيجلية، والأغواطيونوالبساكرة ،وجماعة الجرابة في طرابلس وتونس ،تميزوا بأعمال تجارية بسيطة ،وجماعة العبيد (الوصفان) ، وأغلبهم من رقيق السودان ، استقدموا للخدمة في منازل خاصة ، لهم وكيل يعرف بقائد الوصفان ، قدرعددهم، بالآلاف (حوالي10000 بالجزائر، و3000 بولاية طرابلس أوائل القرن التاسع عشرالميلادي) .

1-1-7 : - الجالية الأوروبية : عناصر وافدة من أوروبا كالتجار الأجانب، القناصل ،ممثلي البعثات الدينية المسيحية، الأسرى المسيحيين، يقيمون بمراكز ولايات طرابلس ، الجزائرو تونس، تمتعوا بامتيازات عديدة

1-2:جماعة الريف

هم مجموع السكان الذين يقيمون خارج المدن ، يشكلون 95% من مجموع السكان، ينقسمون حسب علاقتهم بالسلطة إلى سكان متعاونين مع السلطة (قبائل المخزن) وسكان خاضعين (قبائل الرعية) ،سكان متحالفين (الأحلاف) ، وسكان ممتنعين(في المناطق النائية والجبال) .

1-2-1: عشائر المخزن: مجموعات قبلية سكانية فلاحية وعسكرية، متعاونة مع السلطة ،تمثل حلقة وصل بين الأهالي في الريف والحكام في المدن، نشأت منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي، تضمن الأمن والإستقرار واستخلاص الجباية والضرائب ومعاقبة المتمردين وتنفيذ أوامر البايلك، ومراقبة السكان والمشاركة في الحملات الفصلية (المحلات) التي تقوم بها فرق الحامية المنظمة ، مقابل نيل أراضي وحيازة مراعي وإعفاء من الضرائب، تتألف من فرسان تعرف ب(المزراقيةوالصبائحية أو المكاحلية أو القوم) .

استقروا قرب م مهمة متحكمة في المواصلات ، لمراقبة تحركات القبائل الجبلية والعشائر البدوية مثل جهات طرابلس ونواحي برقة .ومن أهم هذه القبائل مخزن المنشية بطرابلس، بني عامر في إقليم وهران و قبائل بوحلوان عند مضيق وادي جر (العفرون) بالبليدة ومخزن أولاد الصحاري غرب مليانة ومخزن عمراوة قرب برج سباو(ناحية بومرداس)ومخزن أولاد خليف نواحي تيارت ومخازن أخرى منتشرة بين الجزائر ووهران وبين الجزائر وقسنطينة مثل قبائل وادي الذهب العثمانية.

1-2-2:-جماعة الرعية: مجموعات سكانية تؤلف غالبية سكان الريف خاضعة للبايلك مباشرة وفرسان المخزن، تدفع الضرائب الثقيلة ، مجردة من السلاح ، يرأسها قياد من الأتراك والكراغلة أو عائلات موالية للبايات مثل قبائل مجاهر فيغرب الجزائر، تمارس الزراعة في أراضي الدولة كأجراء او خماسين .

1-2-3: -المجموعات السكانية المتحالفة: تتعامل مع البايلك عن طريق شيوخها المحليين وأغلبهم مرابطون في غرب البلاد وحربيون في الشرق وجنوب التيطري (الأجناد)، بينما في جرجرة والبابور والصومام ينتمي قادتهم إلى أصول عريقة. وقد ساعدت طبيعة الشرق الجزائري على تزايد نفوذ هذه القبائل فسيطرت على ثلثي البايلك ، مما جعل البايات يتعاملون معهم ويعترفون بهم وخاصة قبائل ومشيخاتالنمماشة وقبائل الحنانشةوالحراكتةوقصرالطير بسطيف وأولاد بوضياف بالأوراس وأولاد قاسم جنوب شرق قسنطينة وأولاد عاشور بفرجيوة وأولاد مقران بمجانة ببرج بوعريريج وبني جلاب بتقرت وأولاد قانة بالزيبان وغيرهم وكذلك الحال في تونس وطرابلس.

1-2-4:- (الممتنعون عن السلطة): قبائل بعيدة عن نفوذ الحكام تعيش متجمعةفي مناطق نائية جبلية ، تعرف بالأحلاف أو المشيخات أو النجوع، ما جعلها تربط علاقات خاصة مع الحكام، تضمن لها الاستقرار الفعلي والانتفاع بامتيازات يوفرها لها الحكام ، مثل تصريف إنتاجها وشراء حاجتها من الأسواق ،كما هو حال قبائل الجبل الأخضر والجبل الغربي بطرابلس أو العشائر البدوية ببرقة وفزان أو القبائل الجبلية بالأوراس والبابور بسطيف، وجرجرة والونشريس وشمال قسنطينة وبعض مناطق الأطلس الصحراوي .

تعاملت معهم السلطة بعدة طرق منها تنصيب حاميات وعشائر مخزنية قريبة منهم لحراستهم ، والتحكم في الأسواق القريبة منهم بتنصيب قادة أتراك وفرسان مخزن يحرصونهم . كما استعملت القوة ضدهم أو فرضت ضرائب سنوية عليهم.

1-3: **علاقة السلطة بالسكان**

في المدن حظيتالطائفة التركية بخدمات البرانية والأسرى والعبيد،بينما الحضر والأندلسيون واليهود كانت لهم امتيازات عديدة. أما في الأرياف فقد تحكم المخازنية في مصير قبائل الرعية ، وتبادلت القبائل الممتنعة والمتعاونة المنافع مع السلطة . وفرض الحكام سلطتهم على سكان المدن والريف، بالطرق التالية:

- وضع حاميات عسكرية بالمدن وخاصة بعواصم الجزائر،تونس ، وطرابلس، وتنصيب فرسان المخزن بمناطق إستراتيجية للأرياف مثل الونشريسجرجرة، الأوراس بالجزائر، الخمير ، الجريد، بتونس، نفوسة ، الجبل الأخضر وفزان بطرابلس الغرب.

- التعاون مع بعض العائلات الكبرى بالمدن والمشيخات الوراثية بالأرياف للتحكم في السكان مثل عائلة بن عاشور في تونس وآل المقراني بمجانة ببرج بوعريريج وأولاد قاسم بالهضاب العليا وابن قانة بالزيبان وأولاد أورابح بالصومام في الجزائر وأولاد سليمان بسرت وخليفة بن عون المحمودي شيخ المحاميد بطرابلس الغرب .

- المحافظة على امتيازات بعض الجماعات بالمدن والأرياف، تأكيدا على ولائها للسلطة مثلما هو حال كراغلة الجزائر والمنشية بطرابلس الغرب الذين لم يلبثوا - رغم ذلك- أن ثاروا ضد القرمنليين.

- الضغط الإداري والعسكري على الطوائف والجماعات العرقية بالمدن والأرياف، بمراقبة القبائل المتمردة وتشديد استخلاص الضرائب، مثلما هو حال التعامل مع قبائل مناطق الحنانشة، النمامشة،الزيبان والجنوب الوهراني بالجزائر والجريد والظهر التونسي بولاية تونس ووسط طرابلس وبرقة بطرابلس الغرب .

- إذكاء روح العداء بين القبائل لإحداث التوازن وقد تجسد هذا بين قبائل جنوب الجزائر وتونس وعامة طرابلس الغرب ، خاصة حول استغلال الأراضي الزراعية والرعوية .

2 - الحياة الإقتصادية

أدى التطور الإداري لولايات المغرب العثمانية الجزائر تونس طرابلس إلى بعث النشاط الاقتصادي المحلي

2-1: أنواع ملكية الارض :

2-1-1: ملكيات خاصة: تنتشر قرب المدن، يمتلكها أتراك وكراغلة وأندلسيون وحضر ويهود وبعض التجار والقناصل الأوروبيون بفحوص طرابلس وصفاقس وسوسة وتونس وعنابة وقسنطينة والجزائر ومازونة وتلمسان وغيرها...، تستغل في إنتاج الخضر والفواكه والحبوب .

2-1-2:-ملكيات مشاعة وأراضي قبيلة: تعرف بأراضي العرش في الجزائر، وأراضي عربي بتونس،يغلب عليها الطابع البدوي القبلي تستغلجماعيا تحت مراقبة شيخ الدوار، وتستغل في إنتاج الحبوب، كما هو الحال بنواحي الجبل الأخضر ببرقة وسهل جفارة جنوب طرابلس وأراضي عربي بالوسط التونسي وأطراف بايلك قسنطينة وجنوب التيطري.

2-1-3:-ملكيات الدولة: تعرف بأراضي المخزن أو البايلك ، تنتج الحبوب وتنتشر بنواحي طرابلس وشمال شرق تونس ، وسهول عنابة ونواحي قسنطينة وحوض سباو والشلف وسهول متيجة ووهران وغريس بالجزائر.وساهم بعض الحكام في تطوير السياسة الزراعية .

2-1-4:-أراضي الوقف: يشرف عليها وكلاء ونظار ، تنتمي إلى عدة فعاليات مثل مؤسسة الحرمين الشريفين والجامع الاعظم ،وسبل الخيرات والمرابطين والأشراف وأهل الأندلس، تؤلف الجزء الأكبر من الملكيات بأطراف مدن الجزائر ،قسنطينة وتلمسان وتونس وحتى طرابلس.

وما يلاحظ أن سبب تطوير الانتاج الزراعي في المناطق الساحلية للجزائر وتونس يعود إلى دور المزارعين الأندلسيين الذين أدخلوا أساليب حديثة لخدمة الأرض، وأدخلوا إدخال مزروعات جديدة مثل الزعفران وأنواع الزهور والقطن ، وتوسعوا في زراعة التوت لتربية دودة الحرير ،والعنب والتين والزيتون

2-2: الصناعات والانتاج الحرفي

تركزت الصناعات في المدن الرئيسية تونس والجزائر وطرابلس وقسنطينة وتلمسان وصفاقس وسوسة. وظل الصناع يزاولون مهنهم ، معتمدين على المهارة اليدوية والمواد الأولية مثل الصوف والجلود والأخشاب والمعادن، توزعت الحرف اليدوية في أزقة وحارات المدن ،التي عرفت بأسماء الصناعات مثل الشواشية (صناع القلانس) أوالبلاغجية (صناع الأحذية) والمقايسية (صناع الأساور).

ومن الصناعات المحلية :النسيج ، الحدادة ومعالجة المعادن والأسلحة وتحضير البارود ، الجلود ،الخشب، وبناء السفن، الخزف والأدوات الفخارية والمستحضرات والعقاقير .

3-2: المبادلات التجارية

أصبحت المدن المغاربية محاور رئيسية للنشاط التجاري؛ فمدينة الجزائر، انتشرت بها الأسواق والدكاكين والمخازن، مثل سوق الرحبة والسوق الكبير. كما أصبحت مدينة تونس محورا للتبادل التجاري؛ فقد أصلح الداي يوسف حي التجار واعتنى بسوق الغزل ، وأنشأ مراد باي سوق القماش ، وأصلح محمد الحفصي سوق الشاشية واعتنى حسين بن علي التركي بسوق السكاجين،في وقت اشتهرت فيه مدينة طربلس بأسواقها العديدة مثل سوق الترك وسوق الرباع وسوق الخضر وسوق المواشي ونقطة تجمع الحجاج المغاربة ومحطة رئيسية للتبادل التجاري مع السودان وميناءا مهما لتصدير بعض المنتوجات المحلية نحو أوروبا و المشرق العربي،كما كانت مركزا يتزود منه التجار الوسطاء من مدن فريقية مثل جالو وكانو ومن جربة وبنغازي وفزان وغيرها .

وقد ارتبطت أغلب الولايات المغاربية العثمانية مثل تلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة وورقلة وتونس وسوسة وصفاقص ونفطة وطرابلس وبنغازي وغيرها بالتبادل التجاري المحلي عن طريق القوافل التي جعلت منها محطت تنطلق نحو بلاد المغرب الاقصى واقطارالمشرق وأقاليم السودان ، بينما أصبحت المدن الساحلية على اتصال مباشر مع عديد الموانئ المشرقية لاسيما مع الأستانة وازمير وبيروت والاسكندرية .

وبحكم الاتفاقيات العديدة ونظام الامتيازات ، حافظت مدن المغرب على علاقات تجارية وثيقة مع المرافئ الأوروبية المتوسطية (مالطة ،نابولي، ليفورن ،جنوة ، البندقية ، مرسيليا ، برشلونة ، أليكانت، جبل طارق)